Religiousness and the Question of Existence of Erich Fromm

Dr. Ghassan AlaAlddin *
Janet Abboud **

(Received 28 / 11 / 2019. Accepted 3 / 2 / 2020)

□ ABSTRACT □

Existence imposes itself, as viewed by Erich Fromm, on Man who finds himself lost in it, anxious about it and busy with the way he deals with the world. An existence that keeps changing until it almost gets hard to seize it intellectually in order to know it and the suitable techniques to deal with it and utilize it for the sake of Man to give value and meaning to his life. However, it is not possible for Man to do so unless he skillfully asks the question related to existence in a right way, which extremely helps in providing reasonable answers about all matters that occupy Man, which concern the purpose of his existence in this world, his place in it and the role he is supposed to take so that he fully achieves his humanity. This is only possible when Man resorts to existence, lives it, and cooperates with the other who shares living in it, likes him, and also seeks to offer answers about what concerns him regarding his relation with religion, which Man always finds himself forced to accept as it offers him safety and satisfaction.

Key words: Religiousness, Existence, Man, Orientation, Psychoanalysis.

*Assistant Professor - Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria
**PhD student - College of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria

التديُّن وسؤال الوجود عند إريك فروم

د. غسان علاء الدين*

جانيت عبود**

(تاريخ الإيداع 28 / 11 / 2019. قبل للنشر في 3 / 2 / 2020)

ملخّص

يفرض الوجود – كما يرى إريك فروم – على الإنسان الذي يجد نفسه تائهاً فيه، قلقاً منه، مشغولاً بالطريقة التي يتعامل بها مع عالم أو وجود لا ينفك يتبدل ويتغير حتى يكاد يصعب القبض عليه فكرياً بغية معرفته وبالتالي الوقوف على الأساليب المناسبة للتعاطي معه وتجييره لصالح الإنسان لإضفاء قيمة ومعنى على حياته. بيد أنه لن يتسنى للإنسان أن يفعل ذلك مالم يجيد طرح السؤال الذي يتعلق بالوجود على نحو صحيح يسهم إلى حد بعيد في تقديم إجابات معقولة حول كل ما يشغل الإنسان من مسائل تتعلق بجدوى وجوده في هذا العالم أصلاً، ومكانته فيه، والدور الذي يفترض أن يضطلع فيه كي يحقق إنسانيته على أكمل وجه، وهذا لن يكون من غير أن يرتمي الإنسان في أحضان الوجود ويعيشه، ويتعاون مع الآخر الذي يقاسمه العيش فيه ويحبه، ويسعى بالتالي لتقديم إجاباته عما يشغل باله في إطار علاقته بالدين، الذي سيجد المرء نفسه دائماً مضطراً لقبوله لما يمنحه له من طمأنينة ورضى وسلام.

الكلمات المفتاحيَّة: التديُّن، الوجود، الإنسان، التوجُّه، التحليل النفسي.

مقدمة:

* أستاذ مساعد– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية

** طالبة دكتوراه– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية

شغل سؤال الوجود ذلك الإنسان منذ نعومة أظفاره، فقد وجد نفسه مُلقى به في قلب عالمٍ غير مستعدٍ للإدلاء بأجوبة مجانيَّة ومريحة، لا عن سؤال الوجود فحسب، بل عن كل ما يُطرح عليه من أسئلة مصيرية، تتعلق بحياته ومماته، بنفسه وروحه وجسده، وبما يتوجّب عليه أن يقوم به أو لا يقوم، هل ينبغي عليه أن يكون محكوماً أم حاكماً، طائعاً أم مُطاعاً، ظالماً أم مظلوماً، عارفاً أم غير عارف؟ بمعنى آخر، ماهي متطلَّبات الوجود الحقيقي التي يجب على الإنسان أن يحوزها أو يحققها حتى يتماهي وإنسانيته؟ هل يعيش حياته كغيره من الحيوانات الأخرى التي تحقق حاجاتها البيولوجية ودوافعها وفق الحد الأدنى الذي تحفظ فيه حياتها؟ أم أن له وظيفة أخرى، ودور مغاير يتجسد في المعرفة قبل أي شيء آخر؟ ثم أيتوجّب عليه الانشغال بالبحث عن إجابات متنوعة ومتعددة لذاك السؤال الكبير حول وجوده ومصيره ورحلة عمره التي تبدأ من غير إرادته وتنتهي على النحو ذاته؟ فالمشوار ما بين البداية والنهاية مهما طال ومهما حفل به من صعاب وأزمات، ومهما بدا لصاحبه أن الخيارات كانت له لا لغيره، فلا بدَّ أن يكتشف أن ثمة أمراً مفروضاً عليه من غير أن يدري ويحتسب. إن ذلك السؤال حول الوجود لابد أن تتعدد إجاباته، وتتنوع حيثياتها، وتتفارق المصادر التي تكمن وراء الإجابة عنه لتكون كل إجابة هي مجرد توق يحقق صاحبها بغيته في المعرفة، بل لنقل يرضي غروره ونرجسيته بدرجة أو بأخرى. والإجابات لا تنحصر هاهنا في الديانات، أو في الفلسفات، أو في الأفكار، أو المعارف، بل إن كل فرد مهما انخفض شأنه أو علا سيجد نفسه ملزماً بمعنى ما أن يقدم إجابات عن ذلك السؤال المصيري.

أهميّة البحث وأهدافه:

أهميّة البحث:

تتجلَّى أهميَّة البحث في سعيه لتقديم مدخل لقراءة نقديَّة للتجربة الدينية أياً كان نوعها على يد فيلسوف حاول الاستفادة من تطور العلوم الإنسانية في عصره، وخاصة علم النفس بمدرسته التحليلية، التي برع في استخدام منهجها التحليلي لمعالجة التجربة الدينية وسبر أغوارها العميقة الجذور في لاشعور النفس الإنسانية.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على التجربة الدينية بوصفها موضوعاً يمكن تناوله بالدراسة والتحليل بوساطة مناهج العلم المعاصرة وخاصة منهج التحليل الفرويدي، فالتجربة الدينية والإيمان ليس حرماً مقدساً ممنوع دخوله إلا لرجال الدين، وهذا بحدِّ ذاته فتحاً جديداً قام به إريك فروم لفضِّ مغاليق التجربة الدينة التي كانت حكراً على رجال الدين، هذا من جهة، أما من جهة أخرى فيكفي أن إريك فروم قد أضاء لنا جانباً مهماً من جوانب النفس الإنسانية ألا وهو التدين الذي من خلاله قد نستطيع تقديم نظرة جديدة للوجود الإنساني الذي لا يزال سؤالاً مؤرقاً يستفز كال إمكاناتنا العلمية والمعرفية لمحاولة تقديم بعض الإجابات عليه.

منهج البحث:

سوف نستخدم المنهج التحليلي المقارن، وذلك لتحليل التجربة الدينية والوقوف على مقوماتها الأساسية، ومن ثم الانتقال من مفردات تلك التجربة، ومن تبيان واستجلاء مضامينها، إلى مقارنتها مع مفردات علم النفس الحديث ومفاهيمه الأساسية، وهي مقارنة ستتيح لنا اكتشاف بعض الحقائق للوقوف على الوجود الإنساني ومشكلاته.

أجوبة الدين عن سؤال الوجود:

يرتبط الدين عند إريك فروم بشكل أساسي بكونه مذهباً للتوجه والعبادة وتقديم إجابات عن الوجود الإنساني، الأمر الذي يعني أن الإنسان لا يمكن إلا أن يكون متديناً، مع أن مفهوم التدين عند فروم قد يبدو غريباً بعض الشيء عن المعنى المتداول له، والذي يرتبط بالأديان التوحيدية إلى حدٍ بعيد، إنه بهذا الإطار يقترب بمعناه الذي يذهب إليه فروم مع ما يفهمه المحلل النفسي منه، الأمر الذي يشير إلى أنهما ينطلقان من جذر واحد حين ينظران إلى الموضوع الذي يهتمان به – أي الدين – فكلاهما يرى أن ثمة حاجة قصوى إلى إطار للتوجه والعبادة متأصل في الإنسان.

فالمتدين يقدم إجابته، والملحد كذلك، والمتنور أيضاً، دون أن يعني ذلك أن بمستطاع هؤلاء أن يقدموا الإجابات الصحيحة المرضية لهم، ولذلك ليس أمامهم من حل كما يرى أريك فروم إلا التشارك مع الآخرين في الوعي من خلال إقامة الشعائر والطقوس الدينية، لأن الدين "**هو الإجابة المصوغة والرصينة عن سؤال وجود الإنسان**"[1]، أما عندما يرفض الفرد، أو يأبى أن يتشارك مع الآخرين في الانتماء إلى دين ما – أي دين – فتتعارض رغباته النكوصية مع الوعي، ومع المتطلبات الثقافية القائمة، فإن العُصَاب حينئذ يكون هو "**الدين السري، الفردي الذي يسيطر عليه**"[2].

إن السؤال الذي يبدو للوهلة الأولى بسيطاً ولا يحتاج إلى جهد كبير للإجابة عليه يدهشنا حينما نقف على الإجابات التي تقدم عليه، وعلى المشكلات النفسية التي يعاني منها الفرد الذي يجد نفسه غير قادر أن يقدم الإجابة المرضية عنه والتي تحقق له التوازن والانسجام، ونقطة الفصل في تلك الإجابة هي أن يعيّن الانسان كينونته الحقة حين ينبري للإجابة، أي أنه يستخدم عقله كي يقبض على الحقيقة بقدر طاقته ومعرفته، وذلك من خلال "**ترك الأشياء تكون ماهي عليه**"[3].

بيد أن ترك الأشياء على ماهي عليه وملاقاتها والتعايش معها، والاندفاع نحوها، ليس متاحاً إلا لأولئك الذين يمتلكون وعياً ومعرفة من مستوًى عالٍ يسمح لهما أن ينظران إلى العالم بموجوداته وأشيائه نظرة خاصة، تتحقق عندما لا يفصل الإنسان نفسه عن الغير وعن العالم، بل يندمج بهما اندماجا عاطفياً قوياً عبر التغلب على نرجسيته، وغروره، وانغلاقه وتعصُّبه، واعتقاده بأنه مركز العالم، حين يفعل ذلك لن يكون بمكنته أن يحقق كينونته الحقة، التي تعني كما يذهب فروم "**الارتباط العاطفي التام بالإنسان والطبيعة والتغلب على الانفصال والاغتراب، والتوصل إلى حالة من التوحّد مع الموجودات، في الوقت الذي اختبر فيه ذاتي بوصفها كياناً مستقلاً هو أنا الفرد**"[4].

"**الكينونة الحقة تعني الولادة الكاملة، وأن يصير المرء ما تتيح له قدراته وإمكانياته أن يصير، وهي تعني امتلاك القدرة على البهجة والحزن، بل تعني الاستيقاظ من نصف النوم الذي يغطُّ به الإنسان العادي، أي الاستيقاظ الكامل ... والكينونة ، تعني اسقاط الأنا، والتخلي عن الطمع، والتوقف عن الجري وراء الحفاظ على الأنا وتضخيمه، وأن أكون وأختبر ذاتي، في فعل الكينونة، لا أن أتملك، وأحافظ، وأطمع، واستعمل**"[5].

إن الإنسان حين يُعمل عقله في الأشياء المحيطة به، ويتعمق في فهمها بما يتوافق مع اكتماله الجسدي والنفسي والعقلي، سيكتشف أنه بدأ الخطوة الأولى والضرورية للوصول إلى ما سماه فروم التوجّه، فما الذي يقصده بالتوجه؟

---

[1] – فروم، إريك: الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد غريب، د. ن، القاهرة، 2003م، ص 35 .

[2] – المصدر السابق نفسه ، ص 36.

[3] – المصدر السابق، الصفحة نفسه.

[4] – المصدر السابق، ص 37

[5] – فروم، إريك: الدين والتحليل النفسي، ص 3

وكيف يكون بمقدور الإنسان أن يصل إليه؟ وما أهميته في الإجابة على سؤال الوجود، بل في تمكين البشر من التغلب على إحساسهم بالسأم والقلق والاغتراب واللاجدوى؟ وهل يتحقق ذلك في سياق دين بعينه؟

فسؤال الوجود يجاب عنه في إطار للتوجه*، حتى لو كان إطاراً وهمياً وغير حقيقي، لأن المطلوب أن يشبع المرء حاجته إلى التوازن والاستقرار لأنه سواء أكان "**يعتقد بقدرة حيوان طوطمي، أم بإله للخطر، أم بتفوق عرقه، فإن الحاجة إلى إطار للتوجه تكون قد أشبعت، ومن الواضح أن صورة العالم التي لديه تعتمد على نمو عقله ومعرفته**"[6].

ولأن فروم يعرف تماماً أن الإنسان فيه جانبان: الأول إنساني، والثاني حيواني، يتضافران ويتحدان ليحققا استقراره وتوازنه يقول: بأن "**العقل هو أداة الإنسان للاحتيال على العالم بنجاح أكبر، الأول إنساني في ماهيته، والثاني ينتمي إلى الجزء الحيواني من الإنسان**"[7]. مع أن راسل في كتابه حكمة الغرب يقول "**إن وظيفة الدين لم تكن تساعد على ممارسة المغامرة العقلية**"[8]

ينظر فروم إلى مفهوم الدين نظرة إنسانية متطورة تنحو به خارج السياق الذي طالما حكم أفهام الكثير من المفكرين والمشتغلين باللاهوت، والتي تنطلق من الاعتقاد بأن القيام بشعائر الدين وممارسة طقوسه يُخل المرء تحت دائرة التدين، لكن فروم يربط بين الممارسة الفعلية الراقية للإنسان وبين شكلانية الدين، فرب متدين، كما يظهر شكلانياً، بحيث يظهر للآخرين أنه لا يشذُّ عن ما حُدِّدَ له من شعائر دينية وطقوس، لكن أفعاله وسلوكاته وبواطن أعماله وروحه تومئ إلى أنه ليس إلا عابداً للأصنام، متحجِّر القلب، في ذات الوقت الذي يكون فيه بعض الملحدين – الذين يجاهرون بموقفهم الرافض للدين والعدائي له في كثير من الأحيان، يكونون في أفعالهم وكأنهم ينطلقون من مبدأ ديني عميق يتسم بأعلى درجات الإيمان. وهذا يعني في نهاية المطاف أن الإنسان كائن يروم الازدواجية في قوله وفعله، في ما يظهر عليه وفي ما يسلكه فعلاً، فقد يكون المؤمن جاحداً، وقد يكون الكافر مؤمناً، وهذا يتحدد حسب درجة شغف كل منهما بأداء طقوسه وشعائره، بل بحسب وجده وشغفه بما يعتقد به، ويدافع عنه. "**ومن اليسير أن نرى أن كثيرين ممن يعلنون إيمانهم بالله هم في موقفهم الإنساني عبدة أصنام، أو أناس بلا إيمان، على حين أن بعض الملحدين المتحمسين ممن يكرسون حياتهم لإصلاح حال البشرية، ولأعمال الإخاء والحب، يتخذون موقفاً دينياً عميقاً يتسم بالإيمان**"[9].

وهنا نجد أن الإيمان عند فروم يصبح أكثر التصاقاً بالممارسات الحية الخلاقة، فالحماس، ومحبة البشر، والإعلاء من قيمة الحياة، والدفاع عن أبنائها هو المعيار الرئيس الذي يفترض أن نميز بموجبه، بين المتدين و اللامتدين، وليس الالتزام بالشعائر الدينية الشكلية والتطابق معها في ظاهر الأمور، ومخالفتها وتجاوزها والعمل بما يناقضها في الممارسة والفعل. بهذا المعنى تختلف الإجابة عن سؤال الوجود الذي يفرض نفسه على جميع البشر بدرجات متفاوتة تتفق ودرجة وعي البشر ومعرفتهم ووفق حال البشر وانتماءاتهم ودرجة تدينهم ومقدرتهم على التأمل والتفكير، بل قل تتعدد الإجابات

*** يقول فروم : ونحن ليس لنا على الإطلاق كلمة في لغتنا للدلالة على ما هو مشترك في كلا النظامين التأليهي وغير التأليهي، أي في كل أنظمة الفكر التي تحاول أن تقدم الجواب عن بحث الإنسان عن المعنى، وعن محاولة الإنسان فهم وجوده، ولعدم وجود كلمة أفضل فإني أدعو أمثال هذه الأنظمة إطارات للتوجه والإخلاص. إريك فروم ، الإنسان من أجل ذاته ، ص 13 .**

[6] – فروم، إريك: المجتمع السوي، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2015م، ص 172.

[7] – المصدر السابق، ص 172.

[8] – رسل، برتراند، حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1983م، ص 23.

[9] – فروم، إريك: الدين والتحليل النفسي، ص 103.

وتكثر بتعدد المجتمعات والجماعات الفاعلة فيها. "**يحاول الإنسان على الدوام إعادة الوحدة والتوازن بينه وبين الطبيعة عن طريق الفكر، وذلك بإنشاء صورة عقلية شاملة لكل شيء في العالم تقوم بدور الإطار المرجعي الذي يستمد منه الإجابة عن السؤال المتعلق بمسألة أين يقف، وماذا ينبغي له أن يفعل، ولكن هذه العملية الفكرية غير كافية، لأن الإنسان المؤلف من جسد وعقل ، يتوجب عليه أن يستجيب لانقسام وجودي، لا بالتفكير وحده بل بعملية العيش بمشاعره وأعماله، عليه أن يجاهد من أجل خبرة الوجود والاتحاد في كل مجالات وجوده للعثور على توازن جديد ... فالإخلاص لهدف، أو لفكرة، أو قدرة تفوق الإنسان مثل الله، هو تعبير عن هذه الحاجة إلى الكمال في عملية العيش**"[10].

ومن اللافت بالنسبة لنا أن نجد فروم يوسع مفهومه للعبادة وللطقس الديني لينحو به صوب مفهوم علم النفس، وكأننا بهذا نجد أن فروم يقول بأن التدين وعلم النفس يسعيان إلى تقديم إجابات معينة حول وجود الإنسان ومصيره. فالإنسان الحديث عندما يذهب إلى المحلل النفسي ليتحدث معه فيما يسمى مرض العصر – التعاسة والضجر وعدم الرضى وبؤس الحياة الزوجية – إنما يفعل ذلك "**كي يصل إلى الرضى والارتياح، وهو في هذا ينتمي إلى عبادة، وأن له فلسفة**"[11].

يخالف فروم رؤية فرويد حول العلاقة بين الدين والعُصَاب التي تتأسس على أن ثمة صلة قوية وواضحة بين الدين والعصاب، تتجلى بقول فرويد: "**إن الدين ليس إلا العصاب الجماعي لطفولة الجنس البشري**"[12]، لكن فروم يتجاوز فرويد ويخالفه قائلاً: "**يجب أن نفسر العصاب على أنه شكل خاص من أشكال الدين، أو على نحو اكثر تخصصاً، نكوصاً إلى الأشكال البدائية للدين يتصارع مع النماذج الرسمية المعترف بها من الفكر الديني**"[13].

ومن الملفت أن الكثير من الممارسات الدنيوية التي يقوم بها الإنسان في حياته – والتي يشتغل عليها علماء النفس ويعملون على فهمها والوقوف على أسبابها الخفية – ترتد إلى الحاجة إلى تنشأ منها الأنظمة الدينية، خذ على سبيل المثال تطرف بعض الموالين في إخلاصهم التعصبي لأنظمة الفتح والسيطرة الديكتاتورية حتى أننا لنندهش من حدة تلك الأهواء وقوتها، وهذا لا يمكن فهمه عند فروم مالم نعود به إلى "**ما نجده في الأديان، فكل أنظمة التوجه والإخلاص الدنيوية تختلف في المضمون وليس في الحاجة الأساسية التي تحاول أن تقدم إجابات عنها**"[14]، فحاجة الإنسان الماسَّة لكي يقدم أجوبة للمشكلات التي تعترضه في حياته ستدفع به للبحث عن إجابات ربما تمنحه بعض الأمان والرضى حتى لو كان شعوره هذا مجرد وهم ، فالإنسان من هذا المنطلق وجد نفسه منذ بدائيته الأولى بحاجة للخضوع لزعيم يمتلك صفات يتفوق بها على أقرانه بما يمكنه من حمايته – أي الإنسان– ومنحه الطمأنينة التي يفتقدها، والحاجة إلى هذا الزعيم كما يرى فروم "**موجودة حتى في المجتمعات الحالية الأكثر تطوراً، فحتى في بلاد كالولايات الأمريكية المتحدة والاتحاد السوفياتي تُترك القرارات المؤثرة لفريق قليل العدد من الزعماء أو لرجل واحد، يعمل في**

---

[10] – فروم، إريك: الانسان من أجل ذاته، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، د. ن، د. م، ط1 ،2007م ص 81–82.

[11] – فروم، إريك: ما وراء الأوهام، ترجمة صلاح حاتم، دار الحوار، اللاذقية، 1992م، ص 139.

[12] – فروم، إريك: الدين والتحليل النفسي، ص 30.

[13] – المصدر السابق، ص30.

[14] – فروم، إريك: الانسان من أجل ذاته، ص82.

ظل عقد تفويض قطعي من الدستور – سواء كان ديمقراطياً أو اشتراكيا"[15]، وكأن فروم يريد بذلك أن يقول أن الخضوع والتبعية ضمن هذا المنحى التي تنطلق من توق البشر إلى تحقيق الأمن والطمأنينة قبل أي شيء آخر.

ولكن هذا الخضوع الذي يحتاجه الإنسان من غير أن يحقق إنسانيته فيه، ويجد نفسه في حالة اغتراب وتشظّي لا يرضي فروم، لأنه يجد فيه جواباً غير حقيقي لسؤال الوجود الذي يشغل البشر ويقلقهم، ولذلك نراه يميل نحو القبول بإجابات دينية تقدمها بعض الفرق أو الأديان عند هذا الشعب أو ذاك، إجابات متطورة تحقق ما يصبو إليه العقل الإنساني في رحلة اكتشافه، إجابات مرضية لحياة البشر على تنوع طرق معاشهم ومكابداتهم، وهو ما وجده فروم على أكمل وجه في الطقوس التي تمارسها طائفة الزن الهندية وتؤمن بها وتسلك بموجبها، الأمر الذي يهيئ للمنتمي إليها كل السبل المناسبة كي ينمي عقله، ويجدد طاقاته، ويكتشف نفسه، وكأنه بذلك يلقي بنفسه في أحضان الوجود بحسب هيدغر.

طائفة الزن وسؤال الوجود:

إن المعرفة بالنسبة لزن – وهي طائفة تفرعت عن البوذية فيما بعد – لامعنى لها ولا قيمة للاشتغال بها، وبذل الجهد لمراكمتها، لأن التعلم صعب ومتعذر أياً كانت السلطة أو المعلم اللذين يقفان ضدها، ولذلك ، وكما يرى فروم فإنه لابد للمعرفة من أن تنبت في داخلنا، في نفوسنا ، كي نتمكن من إدراك الحياة ذاتها في جريانها وتدفقها، فما لم ترم ذاتك في داخلها – أي الحياة – وتتعايش معها، وتعيشها لن ينفع أن تتعلم عن طريق الألفاظ أو المذاهب الفكرية والفلسفية، لأن هذه ستتحول فيما بعد إلى سلطات نعبدها، وإذ ذاك نكون حرمنا أنفسنا من معاينة الحياة ومعرفتها جوانياً. إن غاية زن وفق هذا المعنى هو الاستنارة "**أي القبض المباشر، وغير التأملي على الواقع، دون تلوث وجداني او فكرنة، وإقامة علاقة بيني وبين الكون، وهذه التجربة هي تكرار لقبض الطفل على الواقع قبضاً مباشراً وسابقاً على الفكر، إلا أنه تكرار على مستوى جديد، هو مستوى التطور الكامل لعقل الإنسان وموضوعتيه وفرديته**"[16].

فالطفل بعد ولادته بفترة قصيرة يتعاطى مع العالم المحيط به بشكل حسي وحركي ومن غير أن يكون لديه أي معرفة عنه، فهو لا يفكر به أو يعقله كما يفعل الراشد، ولكنه يتعامل معه وكأنه – أي العالم – طوع يديه، فيمد يده ليمسك القمر، أو يلتقط الغيمة، بل إنه عندما لا يستجيبا له يغضب على طريقته ويندهش ويبدأ بالصياح والغضب والاستغراب، وهو ما يجب على الإنسان العاقل أن يفعله كما ترى (زن)، عليه أن يقلد ذلك الطفل فيقبل على العالم مباشرة ويمرّغ نفسه فيه كي يصبح مطواعاً له ومقبوضاً عليه من قبل هذا الإنسان، لأن القبض على الواقع على هذا النحو ومعايشته هو ما أسماه سوزوكي "**فن العيش، وهو المفهوم الذي ينمو على تربة التوجه الإنسانوي الروحي الذي يشكل أساس تعاليم بوذا، وتعاليم الأنبياء والمسيح**"[17].

فالوجود، بهذا المعنى الذي تذهب إليه زن ليس وجوداً معطى عن طريق الفكر، بحيث يمكن وصفه والحديث عنه كما لو كان شيئاً يظهر للعيان بذات الطريقة، إنه وجود عصي على الفهم والمعرفة بالمعنى العلمي، فهو كالسلحفاة التي تخبئ رأسها إذا واجهت غريب ما، ولكنها حين تعتاد عليه وتألفه يصبح سلوكها طبيعي للغاية، لأن ثمة معايشة قد

---

[15] – **فروم، إريك: ثورة الأمل، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الكلمة، القاهرة، 2010م، ص 78.**

[16] – **فروم ، إريك وسوزوكي ، فرويد وبوذا ، التصوف البوذي والتحليل النفسي ، ترجمة ثائر ديب ، دار الحصاد د. ت، دمشق ، 2007 .**

[17] – **المصدر السابق، ص 112.**

حلت مشكلة الخوف والرهبة من وجود ذاك الغريب الذي صادفته للمرة الأولى. وهكذا هو حال الوجود الذي لا يتكشف للإنسان مالم يتعلم ذلك الإنسان كيف يقذف نفسه في قلب الوجود، كما نرمي أنفسنا في البحر عندما نريد تعلم السباحة، ومن غير ذلك سيبقى البحر عالماً مجهولاً بالنسبة لنا، ويضحى تعلم السباحة إذ ذاك مشكلة، إن لم يكن ضرباً من المستحيل "**إن الوجود ، ووجود الذات الخاص، ووجود الغير لا يؤخذ على أنه شيء مسلم به، بل نشعر به على أنه مشكلة، فهو ليس إجابة، بل تساؤلاً**"[18] فالسؤال وفق هذا الفهم، هو المفتاح السحري الذي يفتح مغاليق العالم ليلج أبوابه الموصودة، وكأن ثمة كلمة سر يجب أن يحفظها الإنسان حتى يفتح الوجود أحضانه له. في هذا السياق يكون ما قاله سقراط "**من أن الدهشة بداية كل حكمة، قول صادق لا بالنسبة للحكمة فقط، بل بالنسبة للتجربة الدينية، فالشخص الذي لم يشعر قط بالدهشة، ولم ينظر إلى الحياة، وإلى وجوده الخاص بوصفه ظاهرة تتطلب أجوبة – مع أن الأجوبة الوحيدة عليها هي أسئلة جديدة – إن هذا الشخص لا يستطيع أن يفهم معنى التجربة الدينية**"[19].

العلاقة بين التحليل النفسي والتجربة الدينية:

ما المقصود بالتجربة الدينية هاهنا؟ وما أهميتها في فهم الوجود الذي يرى فروم أن الفكر عاجز عن فهمه والتعاطي معه، بل عن فهم وتحليل التجربة الدينية أصلاً؟ لأن الأخيرة إنما هي شكل عميق من أشكال المعايشة والمعاناة الوجدانية، يلجأ إليه المرء للانسراب في قلب الوجود، والقبض على روحه الشاعرة المتوقدة، وما علاقة التجربة الدينية بالتحليل النفسي الذي يمارسه الأطباء وعلماء النفس؟

إن الإجابة عن تلك الأسئلة ليس أمراً هيناً، سيما ما يتعلق منها بالوقوف على حقيقة التجربة الدينية بغية تحليلها وفهمها، بله استجلاء عناصرها لمعرفة كيف تساعد الإنسان القلق والمسكون بالدهشة على الاندماج بالوجود لدرجة أن يصبح أحدهما هو الآخر بعينه.

غير أن الصعوبة في الحديث عن التجربة الدينية التي قد تقدم للإنسان جملة من الاستفسارات عن العالم والوجود، لا تمنع المحللين النفسيين من أن يقلدوا تلك التجربة، ويقوموا بمحاكاتها، انطلاقا من اعتقادهم بالمماثلة بين ميدان التجربة الدينية وميدان التحليل النفسي، ففي رأيهم – وكما يذهب إريك فروم – إن التحليل النفسي إذا كان فعالاً "**فما ذلك لأن المريض يتقبل نظريات جديدة عن أسباب شقائه، ولكن لأنه يكتسب قدرة على الدهشة الصادقة، فهو ينبهر باكتشاف جزء من نفسه لم يفطن إلى وجوده قط. وهذه العملية في اختراق حدود الذات العضوية، أو الأنا، والاتصال بالشطر المتناثر المفكك في النفس، أي اللاشعور هي التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالتجربة الدينية التي تحطم الفرد، وتصل إلى شعور الاتحاد بالكل**"[20].

فالتجربة الدينية توحدنا مع الكل، مع روح الوجود، تلك التي يصعب القبض عليها من غير أن نعيش في قلب النشوة التي نشعر بها ونحن في أحضان الوجود، بعد أن نعايشه ونحبه ونتعود عليه ونألفه، وهاك قصة "**هسيديكي يمكن أن**

[18] – فروم، إريك: الدين والتحليل النفسي، ص86.

[19] – المصدر السابق، ص86.

[20] – المصدر السابق، ص88.

تبنى على هذه النقطة؛ كان يسأل تلميذ أستاذ هيسديكي، لماذا تذهب للإصغاء إلى الأستاذ؟ هل تفعل ذلك لسماع حكمة؟ أجاب: آه كلا ، إنني أذهب لأرى كيف يعقد رباطي حذائه"[21].

يفسر فروم تلك القصة بالقول :"**إن ما يهم لدى شخص ما ليس الأفكار والآراء المقبولة منذ الطفولة أو المقرة عبر اصطلاحية للفكر، وإنما خاصية مواقفه، وأصل قناعاته العميق**"[22]. و هذا يعني أن الإنسان منذ ولادته ما فتئ يبحث لحياته عن معنى ما، عن قيمة ما، بحيث يعمل ذلك المعنى، وتلك القيمة كإطار للتوجيه، فيتمكن الإنسان بمقتضى ذلك من أن يعيش حياته بطمأنينة ودعة وانسجام، وفي هذا المنحى بالذات يتحدّد ما هو القاسم المشترك بين رجل الدين وعالم النفس فيما يتعلق بإطار التوجيه، فبينما يهتم الأول بالمعتقدات الخاصة بدين ما، بدينه أو بدين الأخرين ... يهتم الثاني – أي عالم النفس – اهتماماً شديداً بالمضامين الخاصة بالدين، لأن ما يهمه هو الموقف الإنساني الذي يعبّر عنه الدين، وما نوع تأثيره على الإنسان، وهل هذا التأثير حسن أم سيئ على تنمية قوى الإنسان، وهو لا يهتم بتحليل الجذور النفسية للأديان المختلفة فحسب، بل بقيمتها أيضا"[23].

وعليه فإن الإنسان لا يقدر أن يعيش من غير أن يتمسك بأمل ما، بغاية ما، بإطار للتوجيه يعطي معنى لحياته، فيدفع به للتعاطف الوجداني مع أقرانه وبني جنسه ومشاركته لهم في كل النشاطات والطقوس التي يمارسونها سواء أكانت مفرحة أم محزنة، لأن هذه المشاركة وحدها قادرة على أن تشعره بإنسانيته ووجوده بشكل كبير. يقول فروم في هذا الصدد: "**ولسنا في حاجة إلى إطار للتوجيه يضفي شيئاً من المعنى على وجودنا ونستطيع أن نشارك فيه إخواننا البشر فحسب، بل نحن في حاجة أيضاً إلى التعبير عن ولائنا لقيم سائدة، أفعال يشارك فيها الآخرون، والطقس بمعناه الواسع هو الفعل المشترك المعبر عن تطلعات مشتركة متأصلة في قيم مشتركة**"[24].

ومن هنا لا يستطيع غير التحليل النفسي أن يكشف سر ميل الإنسان ونزوعه نحو التعلق بإطار للتوجيه يساعد المرء على أن يرسم مساراً إيجابياً لحياته بأن يرمي نفسه في أحضان الوجود المفعم بالمواقف الإنسانية التي تنم عن درجة عليا من التعاطف والمحبة للآخر الذي لا يمكن لأي منا – مهما بلغت مكانته، وعلا شأنه – أن يلغيه من حياته ويعتبره غير موجود. فعلى التحليل النفسي هاهنا "**تقع مهمة كشف الآثار الخفية لأي حادثة، بحيث ييسّر للأطباء والمعلمين الروحيين تسكين أوجاع الإنسانية المتألمة، وانطلاقاً من هذا الأصل العلاجي فإن مختلف التحليلات النفسية لكل من فرويد ويونغ تحتفظ دوماً بالخاصيات التجريبية حتى في تطبيق تأويلياتها على المسألة الدينية، وقد توسعت تلك النظرية إلى الدين، دون أي تأجيل، لذلك نجد فرويد يؤكد على دور الإيروس في تشكيل الشعور الديني**"[25].

إن من اللافت عند أريك فروم أن يركز جهده على تحليل الدوافع الدينية بكافة أشكالها ومصادرها باعتبارها تمثّل ضرورة قصوى في إنجاز أي تغير على مستوى الصعيد الاجتماعي، وهذا يعني أنه يرى في تلك الدوافع أو العاطفة الدينية حاجة إنسانية بامتياز يسعى الإنسان من خلال تملكها وتعميقها وتفنيد وجودها إلى أن يقدم جملة من الإجابات

---

[21] – فروم، إريك: ثورة الأمل، ص 153.

[22] – المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[23] – فروم، إريك: الدين والتحليل النفسي، ص29.

[24] – المصدر السابق، ص 98.

[25] – مسلان، ميشال: علم الأديان، ترجمة عز الدين عناية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2009م، ص14.

عن مغزى وجوده وحياته في إطار ما أسماه الاحتكام إلى الضمير الإنساني الذي يتوجب أن يحدث تغير عميق فيه ليكتشف البشر "**أشياء جديدة يكرسون حياتهم من أجلها، تحل محل ما هو موجود حالياً**"[26].

ويبدو أن السعي إلى التغيير من خلال ضمير إنساني مثقل بالتعاطف والمحبة للبشر جميعهم، يدخل عند فروم في سياق ما أطلق عليه (الحاجة إلى إطار التوجه) والتي تظهر على مستويين: "**المستوى الأول هو أن امتلاك إطار ما للتوجه بقطع النظر عن أنه حقيقي أو زائف، وإذا لم يكن للإنسان مثل هذا الإطار المرضي ذاتياً، فإنه لا يمكن أن يعيش سوياً. والمستوى الثاني تكون الحاجة إلى الاتصال بالواقع بالعقل، وإلى فهم العالم موضوعياً**"[27].

ومع أن فروم يتحدث عن مستويين للحاجة إلى التوجه، إلا أنه يعتبر أن الأول أكثر أهمية بكثير من المستوى الثاني، لأن الأول يتعلق بسلامة المرء، بينما يتعلق الثاني بسعادته، والسلامة أكثر إلحاحاً من السعادة، "**فضرورة إنشاء عقله ليست ضرورة ماسة مثل ضرورة إنشاء إطار للتوجه، مادام ما هو في خطر في الحالة الثانية هو سعادته وهدوؤه، وليس سلامته**"[28].

فالسلامة هي الصق بالوجود وسؤاله من السعادة، لأن الأخيرة لاحقة من لواحق الوجود الذي لا يفتأ الإنسان يبحث عن أجوبة مقنعة لأحواله وأعراضه فلا يجد لأنه في اللحظة التي يتوهم أنه قد قبض على إجابة ما لسؤال بعينه يفر الوجود ويتقمص ألف ثوب ولون. غير أن الإنسان الذي يتوق إلى تقديم الإجابات والوقوف عليها لا يرضى إلا أن يستند إلى حائط صلد يسند ظهره عليه في مواجهة أحوال الوجود القلقة والمدهشة، فلا يجد إلا الإيمان؛ الإيمان بجملة أشكاله وتنويعاته، فقد يكون إيمان بالله، أو بالإنسان، أو بقوى سحرية، ... إلخ بحيث يمنحه ما يؤمن به ضرباً من ضروب الطمأنينة والثقة بالنفس، وقد وجد فروم في إيمان الإنسان بإمكانات البشر الآخرين شكل عميق من أشكال الإيمان. يقول معبرا عن ذلك: "**يبلغ الإيمان بالآخرين ذروته في الإيمان بالإنسانية، في العالم الغربي كان هذا الإيمان متمثلاً في المصطلحات الدينية في الديانة اليهودية والمسيحية، أما في اللغة العلمانية فهو يجد تعبيره الأقوى في الأفكار الإنسانية السياسية والاجتماعية في السنين المئة وخمسين الأخيرة**"[29].

و لكن الإيمان، وخاصة الايمان الديني قد يجعل الإنسان تحت وقع ظروف معينة – خاصة حين يستبد به الخوف – أكثر ميلاً إلى التسلط على الآخرين، فإذا لم يتمكّن من ذلك لعدم تمتّعه بالقوة اللازمة لفعل ذلك، فإنه يبحث عن متسلط يختبئ خلفه. من هنا يأتي دور التحليل النفسي كي يكشف عن "**العمليات النفسية التي تدور وراء تجربة الإنسان الدينية، بل ينبغي عليه أن يسعى لاكتشاف الظروف التي تساعد على تنمية التراكيب ذات الطابع التسلطي الإنساني، تلك التراكيب التي تنبثق منها ضروب التجربة الدينية المختلفة**"[30]. فثمة حاجة دائمة من جانب الإنسان الذي يجد نفسه غريباً في عالم يعج بالمشكلات والمصاعب التي تنجم عن عدم قدرته – أي الإنسان – عن أن يقدم أجوبة ملائمة للأسئلة التي تخطر له، ولذلك تراه يسعى لحماية نفسه والبحث عن الأمان والطمأنينة، حتى لو كان أمانه هذا وطمأنينته تلك هي محض هراء حين يفوض أمره، ويرهن إرادته لمتسلط، أكان ذلك على مستوى الدين أم على مستوى السياسة. وكأن الإنسان هاهنا بطبعه ومولده مفطور على أن يؤمن بقوى غير مرئية وغيبية ربما يتوهم أنها قادرة

---

[26] – إريك فروم: الانسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة الكويت، العدد 140،1989م، ص143.

[27] – فروم، أريك: المجتمع السوي، ص173.

[28] – المصدر السابق، ص173.

[29] – فروم، إريك؛ فن الحب ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، بيروت، دار العودة، 2000، ص 114.

[30] – فروم، إريك: الدين والتحليل النفسي، ص50.

على أن تمنحه بعض الإجابات التي من غير أن يقف عليها سيظل في حالة قلق دائم وثورة نفسية لا تنتهي، وفي هذا السياق يندرج قول دوستويفسكي: "**إذا كان الله غير موجود فكل شيء يجازٌ**"[31].

الخاتمة:

في إطار ما سبق نلاحظ أن الإنسان يجد نفسه في مواجهة سؤال الوجود الذي تتعدّد الإجابات عليه وتتنوع باختلاف موقع الإنسان في هذا العالم وموضعه فيه، وموقفه منه، فإجابة الفيلسوف تغاير إجابة المتدين، كما تغاير إجابة العالم أو الإنسان العادي، فكل واحد يتصدى للمسألة من جهة ما يعتقد إنه الصواب الذي يمنحه الأمان والراحة، حتى لو لم يكن ذلك الشعور غير وهم لذيذ ليس إلا.

ولكن على الرغم من أن موقع الإنسان ووعيه وطريقة تفكيره تسهم إلى حد كبير في صوغ إجابات متنوعة عن العالم، وأصله وفصله، ولماذا كان وجوداً ولم يكن عدماً، وما أهمية هذا الوجود الذي يطوينا كطائر تحت جناحية، على الرغم من ذلك تبقى الإجابة الدينية هي أكثر الإجابات حسماً وأهمية بالنسبة للإنسان كما يعتقد إريك فروم، لأن الإنسان في حدود تلك الإجابات التي يستمدها من إله ما يرتب وضعه في هذا العالم في إطار فهم فحواه أن الله إذا كان قد خلق العالم على هذا النحو الذي هو عليه وسخره للإنسان، فما على هذا الأخير إلا أن يثق بما هو كائن لأنه على حسب لايبنتز هو أفضل العوالم الممكنة، وبالتالي هو أكمل وجود.

من هنا يتوجّب على الإنسان أن يفكر في روحه كما يفكر في جسده، وهو لو أراد أن لا يفكر لن يكون بمقدوره فعل ذلك، ولهذا "**ليس صحيحاً أنه يتوجب علينا التنازل عن اهتمامنا بالروح إذا كنا لانقبل عقائد الدين، ... فالمسألة ليست هي عودة الإنسان إلى الدين والإيمان بالله بل أن يحيا في الحب ويفكر في الحقيقة**"[32].

[31] – **فروم، إريك: ثورة الأمل، ص152.**

[32] – **فروم، إريك: الدين والتحليل النفسي، ص70.**

Sources and references :

[1] Eric From: The Human Between Essence and Appearance, translated by Saad Zahran, Knowledge World Series, Kuwait, No. 140,1989.

[2] Eric From: Man for Himself, translated by Mahmoud Munqeth Al Hashemi, d. N, d. M., 1st edition, 2007 A.D.

[3] Eric From: Religion and Psychoanalysis, translated by Fouad Gharib, Dr. N, Cairo, 2003.

[4] Eric From: The Right Society, translated by Mahmoud Munqeth Al Hashemi, Dar Al-Hewar Publishing and Distribution, Lattakia, 2015.

[5] Eric From: The Revolution of Hope, translated by Mujahid Abdel Moneim Mujahid, Dar Al Kalima, Cairo, 2010.

[6] .Fromm, Eric and Suzuki, Freud and Buddha, Buddhist mysticism and psychoanalysis, translation of Thaer Deeb, Dar Al-Hasad, d. T, Damascus

[7] Eric From: The Art of Love, translated by Mujahid Abdel Moneim Mujahid, Beirut, Dar Al-Awda, 2000.

[8] Eric From: Beyond Delusions, translated by Salah Hatem, Dar Al-Hiwar, Lattakia, 1992.

[9] Farha, Mohammad. The Ontology: Origin, Development and Maturity, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (4) 2010.

[10] Bertrandersel: Wisdom of the West, translated by Fouad Zakaria, National Council for Culture, Arts and Literature, Kuwait, 1983 AD.

[11] Michel Maslan: The Science of Religions, translated by Izz Al-Din Enaya, The Arab Cultural Center, Casablanca, 1st edition, 2009 AD.